الافتتاحية

يوحنا الذهبيّ الفم بولسُ زمانه، خادمٌ أمينٌ لكلمة اللّه

رئيس التحرير

مقدمـــة

انصرف الذهبيّ الفم إلى دراسة الكتاب المقدس بطريقة معمّقة في أنطاكيا، لكن من المرجَّح جدًّا أن يكون قد قرأ الأسفار المقدسة كثيرًا، وتأمّل فيها، وغاص في أبعادها، عندما أمضى ستّ سنواتٍ على الجبل في حياة نسكيّة قَشِفَة عابدة مارس خلالها الأصوام والأسهار والإماتات بشكلٍ منقطع النظير. وإن كان قد عاد إلى أنطاكيا، بعد هذه السنوات التي طبعت حياته كلَّها بطابع النسْك والزهد وروح العبادة، فإنّ ذلك لم يكن إلاّ بدافع خدمة الآخرين بالكلمة وبالفعل. ومن سنة ٣٨٦ (تاريخ سيامته كاهنًا) حتّى سنة ٣٩٢ (تاريخ سيامته أسقفًا على القسطنطينيّة) شغل منصب الواعظ الرسميّ في أنطاكيا، وجُلُّ وَعْظِهِ كان بيبليًّا إلى حدٍّ كبير.

١ – طريقة الذهبيّ الفم في تفسير كلام الله

درس يوحنا في مدرسة أنطاكيا، حيث الأفضليّة في التفسير هي للمعنى الحرفيّ، لينتقل بعد ذلك إلى المسائل الخُلُقيّة. بالطبع، يهتمّ الذهبيّ الفم قبل كلّ شيء بأن يبيّن معنى النصّ، فينطلق من معنى الكلمة حصرًا، ليصل إلى هدف هذا الأخير. من هنا ينظر العديد من مفسِّريّ الكتاب المقدّس إلى ما تركه لنا الذهبيّ الفم في مجال التفسير البيبليّ بأنه بذات الفعل شاهد جيّد وهامّ لِتَنَاقُل الأسفار المقدّسة.

لجأ الذهبيّ الفم في تبيانه لمعنى مقطعٍ ما إلى إبراز الموازاة بين النصّ الذي يعالج ونصوص أخرى مشابهة، مستعينًا بنصوص إضافية من رسائل بولس ومن الإنجيل، كما يُدرج أيضًا نصوصًا من العهد القديم إذا لزم الأمر. هكذا، مثلاً، في عظاته على الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين، يشير مرّات عدّه إلى مقاطع أخرى من الرسالة عينها، وذلك ليفسّر نصًّا ما بسياق الرسالة ذاتها.

ويضيف إلى ذلك عادةً أمثلةً يستلّها حيث يرى أنّها توضح المعنى وتُسهم في إيصال الرسالة. هكذا، مثلاً، يستعين بوجوه من العهد القديم، مثل إبراهيم وموسى وأيوب، ليعلّم مستمعيه التواضع، والضيافة، والصبر، واستعمال الغنى، كما أيضًا بوجوه من العهد الجديد مثل زكّا، والرسل، وبولس، وصولاً إلى المسيح يسوع بالذات. بالمقابل، من النادر أن يلجأ الذهبيّ الفم إلى منهجية مدرسة الإسكندرية، أي إلى الألّيغوريّا.

ويتكلم على النُهْيَويّة (الإسكاتولوجيا) بشكل ثابت في حَثِّهِ الذي يُدرجه في عظاته، مبيّنًا أكثر من مرّة أنّ البُعد النُهيَويّ مُتَضَمَّنٌ منذ الآن في وجودنا الأرضيّ.

أخيرًا، يتأكّد لنا أنّ الكتاب المقدس بالنسبة إلى يوحنا الذهبيّ الفم هو خزّان العِبَر والأمثولاتِ الخُلُقيّةِ التي تقود مسيرتنا على الأرض، والتي يُفيضها العهدان القديم والجديد على القارئ النبيه والمفسِّر الناجح. لذلك، عندما يعظ،

ينطلق من المعنى الحرفيّ لمقطعٍ ما يفسّره، ليبلغ بسامعه إلى الخلاصات العملانيّة المسلكيّة التي على المؤمن أن يعتمدها في مسيرته الإيمانيّة والروحيّة. لقد آمَن الذهبيّ الفم بأنّ الكتاب المقدس، الذي هو ثمرة إلهام الروح القدس، يحتوي على كلّ القواعد الضرورية لحياة مسيحيّة صالحة وناجحة.

٢ – الذهبيّ الفم رجل الكلمة

تبيّن لنا عظاتُ الذهبيّ الفم حول رسالة القديس بولس الأولى إلى الكورنثيّين كيفيّة قيامه بمهمّته ككارز بالكلمة؛ فهو كان أبعد ما يكون عن السعي إلى أن يستحصل على إعجاب الناس به، وينتقد مَن كانوا يُلقُون المواعظ والخطب دون أن يضمنّوها رسالةً أو تعليمًا، بل كلامًا منمَّقًا وفارغًا ليس إلاّ، ويزيّنون خطبهم بهدف الإغراء والمديح. فاستنادًا إلى الذهبيّ الفم، على من شاء أن يلقي عظة أو خطبة أن ينقل من خلالها الحقيقة التي يوحيها اللهُ والتي تتناقلها الكنيسة؛ فالواعظ أو الخطيب هو خادم الحقيقة النازلة من العلاء، وليس الحكمة الدنيويّة الباطلة.

٣ – الذهبيّ الفم حامل البشرى

لقد أمضى الذهبيّ الفم حياته في خدمة كلام الله، داعيًا الجميع، إكليريكيّين ومؤمنين كافة، إلى قراءة الكتاب المقدس، مُحيلاً سامعيه إلى هذا المقطع أو ذاك من العهدَيْن القديم أو الجديد، وعائبًا على هؤلاء عدم قيامهم بقراءة متنبّهة لهذه الآية أو تلك من الكتاب المقدس، التي يستغلّها الخصوم لإيذاء قطيع المسيح (رج عظة على ١ كو، ٢٤).

ويبدو أنّ مسيحيّي كنيسة أنطاكيا كانوا يمتلكون نسخًا مخطوطةً للكتاب المقدس، الأمر الذي كان يتيح لهم فرصة القراءة في بيوتهم، لذلك كان الذهبيّ الفم يسمح لنفسه بمطالبتهم بالقيام بذلك وبالتشديد عليه. ولكن، أكثر ممّا هو مطلوب من المؤمنين العاديّين، كان الذهبيّ الفم يشدّد على واجب مَن يعظ بأن يضمن لنفسه معرفةً معمّقة وراسخة للكتاب المقدّس؛ فهو شخصيًّا كان قد تلقّى تنشئته اللاهوتيّة في مدرسة أنطاكيا الشهيرة، والتي كان روّادها مدعوّون إلى تحصيل معرفة جيّدة ومتماسكة للكتب المقدسة وهضمها، وتفسيرها وفق المنهجية الأنطاكيّة المعروفة، أي التفسير الحرفيّ.

٤ – من القراءة والتعمّق إلى التطبيق الخلقيّ

إنّ ما يلفت النظر في هذا المجال لم تكن التفاسير النظريّة والعلميّة المعقّدة للكتاب المقدّس، بل الناحية التطبيقية والعملانية المفيدة لحياة المؤمن ولتقدّمه الروحيّ، وللسلوك الأدبيّ الواجب على كلّ المسيحيّين. من هنا كان الذهبيّ الفم ينطلق، ومن الكتاب المقدس بالذات، ليندّد بالتصرّفات غير اللائقة بالمسيحيّ، أو ليشدّد السالكين حسنًا في مسيرتهم ومقاصدهم. ومن المعروف أن مسألة الأخلاق في أنطاكيا كانت غير مَرْضيّة، الأمر الذي يفسّر سبب هجوم الذهبيّ الفم على كلّ المنحرفين في رعيّته، داعيًا الجميع إلى عيش المثال المسيحيّ السامي كي يتمكّنوا من الصمود على المبادئ الإنجيلية وسطَ كثرةٍ غير مسيحيّة.

إنّ تعمّق الذهبيّ الفم في كلام الله، والتزامه به أمام الله والناس، واستلهامه إيّاه في تعليمه ووعظه وسلوكه، كلّ ذلك دفع بالقديس العظيم إلى إيلاء الفقراء عنايةً أبويّة رائعة، فحنا عليهم، وكانوا الأكثريّة في أنطاكيا، هذا إذا أضفنا إليهم الغرباء، والأسرى، والمرضى، ومَن شابههم، واعتنى بهم بكلّ طاقته، رافعًا الصوت ضدّ تقاعس القادرين على مدّ يد المساعدة، ومندّدًا باحتقار المساكين والمعوزين، وداعيًا المسيحيّين إلى أن يروا فيهم صورة المسيح الفقير.

٥ – لوحة عملانية: بكلام الله يخاطب الذهبيّ الفم الأغنياء

لقد استنار الذهبيّ الفم بتعاليم يسوع، فاستلّ من مثل

الغنيّ ومن تعاليم بولس ما كان بحاجة إليه كي يتوجّه إلى الأغنياء الذين، كما في كل زمان ومكان، يكدّسون الأموال والمقتنيات ويقولون: "يا نفس، لك خيرات كثيرة لسنين عديدة، فكُلِي واشربي وتنعَّمي"، مُتناسِين أنّ هذا الذي أعدّوه لن يكون لهم، لأنه في ليلة لا يخالونها تأتي الساعة فلا يفلتون.

في أيام الذهبيّ الفم كانت عائلات مقتدرة تمتلك الغنى الكبير، بينما كانت الأكثرية تعاني من العوز والفاقة؛ فمقابل البذخ والموائد الفخمة، والألبسة النفيسة، وغير ذلك من مظاهر الغنى، كانت طبقة الفقراء هي الأكثرية الساحقة في أنطاكيا؛ هذا ما يفسّر ثورة الذهبيّ الفم على هذه الحالة المأساوية، لذلك كان يعمل جاهدًا، وبروح معلّمه، على التوعية والإرشاد والتوبيخ والحثّ، دون أن تكون لديه أيّة نزعة متطرّفة ضدّ الغنى أو الأغنياء بحدّ ذاتهم. هكذا، وانطلاقًا من روح الإنجيل، راح يدعو إلى ممارسة المحبة التي كان يعتبرها أولى الفضائل، لا بل روح كلّ الفضائل.

هكذا أضحى الذهبيُّ الفم خادمَ الكلمة بعلمه وعمله؛ فهو، بالإضافة إلى صفاته كخطيب مفوّه وواعظ بليغ، كان له قلب عامرٌ بالمحبّة، تدفعه غيرته الرعوية إلى الالتزام بقضايا الناس، وخدمة الجميع من خلال التبشير بمن هو الحقّ والخير والمحبة.

٦ – الذهبيّ الفم وشَغفه بالقديس بولس

إذا كان الذهبيّ الفم قد تتلمذ في شبابه في مدرسة أنطاكيا، فإنّه تتلمذ بصورة جذريّة في مدرسة القديس بولس، ونشّأ ذاته على فكر هذا الأخير المكنوز في رسائله، ولا عجب، فهو على شغف مُعْلَنٍ به، نتبيّنه من مدائحه الرائعة التي ساقها لشخص رسول الأمم، ببلاغته وفصاحة عباراته البديعة والمعهودة، الأمر الذي كان يثير إعجاب مستمعيه وحماسهم، مع الإشارة إلى أنّهم كانوا يصغون إلى صوت هذا الراعي الصالح بكلّ جوارحهم، ويبقون مسمَّرين في مقاعدهم مهما طالت العظة الذهبية.

لا عجب إذًا إذا ما شرح الذهبيّ الفم كلّ رسائل بولس، وإذا ما استشهد به بدون كلل، واعتبره مثالَه في عرضِ مضمونِ الإيمان، وفي الاندفاع في خدمة رعيّته، معتبرًا أنّه لا بُدّ له من أن يجهد النفس حتى يقتدي بالرسول العظيم إلى أقصى حدّ. لذلك كان يقرأ ويقرأ رسائل القديس بولس، يستخرج منها الغالي والثمين لحياته الخاصّة، روحيًّا وإيمانيًّا، ومذهبًا ورعايةً، عاملاً على أن يصبح على مثاله في الغيرة في حمل البشرى السارّة، والمحبة الشديدة للمسيح، والجرأة في "المناداة بالكلمة في وقت ذلك وفي غير وقته".

لقد كتب في مستهلّ تفسيره لرسالة بولس إلى الرومانيّين ما يلي: "في كلّ مرّة أستمع فيها إلى قراءةٍ من رسائل الطوباويّ بولس، مرّتين وغالبًا ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع، خلال الاحتفالات بذكرى الشهداء القدّيسين، أُسَرُّ وأفرح بأصوات هذا البوق الروحي"، أي بولس الرسول. ويضيف: "كل ما نعرفه قد تعلّمناه... في محادثة منتظمة معه، وفي الإعجاب العميق الذي نكنّه له". لقد خَصَّ الذهبيّ الفم القديس بولس بعدد هامّ من العظات تشكّل نوعًا من المدخل للعظات العقائدية التي كرّسها للرسالتَين إلى الرومانيين وللأولى إلى الكورنثيين. فعندما ألقى عظاته حول الرسالتَين الأخيرتَين ،كانت الجماعة التي يخاطبها تمرّ بتوتّرات شديدة ومؤذية؛ يُضاف إلى هذا كلّه التراخي الأخلاقيّ من فوضى في العلاقات، وممارسة الشَعْوذة، والشغف المفرِط بالمسرحيات، وارتياد المجامع اليهوديّة بخفّة ومن دون مسؤوليّة تجاه الإيمان الحقّ، وغير ذلك. لقد شكّلت رسائل القديس بولس مصدرًا هامًّا لمواقفه ولتعاليمه ولأعماله في خدمة الأسقفية والراعوية، فإذا به يضحي بولسَ زمانه ببلاغته واندفاعه وحبّه للمسيح ولإخوته الصغار.

خاتمـــة

ممّا لا شكّ فيه أنّ الذهبيّ الفم هو فريد عصره فكرًا وعلمًا وقيادةً أسقفيّة؛ فهو، في الواقع، الراعي الغيور، وهو

بالتالي الصورة الرائعة عن معلّمه، "الراعي الصالح". صوته تستعذبه الخراف وتتبعه لأنّها تعرفه، لذلك هو فخر زمانه وكلّ زمان، كاهنًا وحبرًا عظيمًا؛ هو حاضر أبدًا ومتأهبٌ لأن يعلّم، ولا عجب في ذلك، فهو ملفانُ يسوع والناطق باسمه وبكلمته، لا يتردّد في الحثّ على القراءة والتعلّم والتثقّف في مدرسة المسيح وتلميذِه بولس، وعلى أن يُعيد مؤمنيه عن الانحراف والضلال والخطيئة إلى السلوك المستقيم، إلى الحقيقة، وإلى الأمانة. ويشكّل الكتاب المقدّس بالنسبة إليه المرجعيّة الأسمى لحياة صالحة وللعيش في ما هو لله. هذا الواقع الذهبيّ لعظات الذهبيّ الفم البيبليّة، جَعَلَ ما عَلَّم وكَتَبَ وترك لنا نقيًّا كالذهب، وخالدًا خلود إنجيل ربنا يسوع المسيح.

للقـــراءة

حاج (ال) اميل، **الذهبي الفم (٣٤٤-٤٠٧)**، سلسلة "الشهود"، رقم ٢٦، جونيه: المكتبة البولسية، ١٩٨٨.

كويتر الياس، **خطيب الكنيسة الأعظم القديس يوحنا الذهبي الفم : حياته وبعض من مواعظه**، ترجمها آباء مخلّصيّون، سلسلة "الفكر المسيحي بين الأمس و اليوم"، رقم ١١؛ جونيه: منشورات المكتبة البولسية، ١٩٨١.

ملطي تادرس يعقوب، **القديس يوحنا الذهبي الفم : سيرته، منهجه وأفكاره، وكتاباته**، سلسلة "أقوال الآباء وكتاباتهم، علم الباترولوجي"، رقم ٤، كنيسة الشهيد العظيم مار جرجس باسبورتج، ١٩٨٠.

زهر عبد المسيح، **القديس يوحنا الذهبي الفم**، سلسلة "موسوعة المعرفة المسيحية"، رقم ٥، آباء الكنيسة، طبعة ثانية منقحة، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٣.

ترديف هنرى، **القديس يوحنا الذهبي الفم**، عربه عن الفرنسية رفائيل نخلة، المعادي، ١٩٦٣.

عساف ميخائيل، **سيرة القديس يوحنا الذهبي الفم بطريرك القسطنطينية، ٣٤٧-٤٠٧**، القاهرة: دار المعارف (دون تاريخ).

كتاب مواعظ الجليل في القديسين يوحنا فم الذهب رئيس أساقفة القسطنطينية، بيروت: مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٨٧٤.

بدوي (ال) خليل، **نخبة النخب في ترجمة القديس يوحنا فم الذهب**، بيروت : المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩١.

LEGEE Jacqueline, *Jean Chrysostome commente Saint Paul*, Paris: Desclée de Brouwer, 1988.

SCHAFF Philip, *A Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, First series 12, John Chrysostom: *Homilies on the Epistles of Paul to the Corinthians*, Grand Rapids: Eerdmans, 1989.

_____, *A Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, First series 13, John Chrysostom: *Homilies on the Epistles of Paul to the Corinthians*, Grand Rapids: Eerdmans, 1994.